مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية . جمادى الاولى ١٤٠٠هـ
المجلد الثالث – العدد الاول من ٢٥ الى ٣٧ آذار ١٩٨٠م

شعر أبي نواس

في ضوء النقد القديم والحديث

الدكتور احمد علي دهمان
كلية الآداب - جامعة تشرين

وبعد :

فهذا ملخص للبحث الذي تقدمت به لنيل درجة الدكتوراه في الآداب آمل ان يكون فيه جديد يجعله اسهاما في الدراسات النقدية التي تتضمن بعض الاضافات التي تسد فراغا في مكتبتنا النقدية المتصلة بحياة وشعر هذا الشاعر الشقي المعذب .

فان وفقت فيما توصلت اليه من نتائج فيها ونعمت والا فحسبي نصيب المجتهد الذي يحاول .

ومن الله نستمد العون والتوفيق والسداد .

الحسن بن هانىء الحكمي ،واحدمن الفنانين الذين كتب لهم شعرهم الخلود . فقد تميز بتعدد فنونه الشعرية وتجديده ،وثورته على الانماط الفنية التقليدية ،والقيم السائدة في عصره ،وكان شعره ملتصقا بحياته وبرؤاه. الوجدانية وميدانا لتجديده الفني . كان النواسي ثمرة لذلك التكاثف الذي انتاب عصره ،وكذلك الظروف الخاصة التي مربها ،فتمادت شخصيته عبر العصور،حارة اللّهاث ،كأنما تعيش في كل آن ومكان. وكان شاعرا شقيا عظيما ،كما وصفه طه حسين ،وبالفعل فقد ظلمه معاصروه ووقفوا في وجه تجديده ،وسار على هديهم لاحقوه فشوهوا صورته في الاذهان،ونسجوا حوله اوهاما واساطيروقصصا شعبيا يدل على خيال مريض،فضاعت حقيقة الشاعر، أوكادت،وضاع شعره لكثرة ما أضيف اليه من أشعارسخيفة وركيكة أوفاحشة كان عظيما ،وكان شعره اهم نواحي هذه العظمة . كان ولايزال قريبا من روح الناس محببا الى نفوسهم لما تمتع به من فن زاخر بالرؤى الانسانية والفلذات الوجدانية ،والتعبيرعن كوامن النفس العصية على الانقياد بسهولة ،وكان ذا مكانة عالية في عصره، ومع ذلك فقد كان ماجنا مجاهرا بالمجون ،لايخشى في ذلك سخط احد او انكاره. لانه يفلسف المجون واللذة وله فيهما رؤية خاصة .

لقد كثر القول فيه ،واختلف الحكم عليه وذهب الناس في امره مذاهب شتى ، اعجب به بعضهم ،وسخط عليه البعض الآخر واخترعت له العامة صورة اسطورية ليس بينها وبين شخصيته الحقيقية اية صلة ،وضاع شعره الصحيح في الكم الغريب من الاشعار التي نسبت اليه بعد موته . ولم اجد احدا فيما اعلم قام بمحاولة توثيق شعره ودراسته للوقوف على محنة هذا الشاعر في حياته،وصراعه مع الزمان والمكان ،صحيح انني قد سبقت ببعض الدراسات السريعة عنه، الا ان معظمها لم يتعمق جوهر شعره ،ولم يتجاوز ساحل بحره كذلك فانني لا انكردور الدراسات النقدية الاخرى التي تناولت في فصول منها بعض جوانب هذا الشاعر . ومع ذلك فليس هناك دراسة واحدة شاملة تغني عن الخوض في شخصية هذا الشاعر.وحيال الميزات الفنية والرؤى الوجدانية التي تمتع بها الحكمي ،وتحقيقا لهدف علمي نبيل،هو اعادة النظرفي موروثنا الشعري ومحاولة قراءته قراءة نقدية متأنية وعميقة ، واعادة النظركذلك فيماكتب عن الشاعر،ثم محاولة تقويمه وانصافه في ضوء آراء النقد القديم والحديث فقد حاولت في هذا البحث،على الرغم من تهيبي

وترددي،نظرا لأن بحر هذا الشاعر متلاطم الامواج مضطرب الاجج حاولت وانا لاالوي على شيء سوى الرغبة في الوقوف على حقيقته ومحاولة رؤية شعره رؤية نقدية فيها بعض العمق والشمول،من خلال،دراسة شعر أبي نواس دراسة فنية تبرز مافيه من قيم فنية وجمالية وتعبيرية ذات مضامين انسانية دراسة تقوم على اساس من المنهج التحليلي،الذي لايغادر النص الشعري الى امور خارجة عن اطار العمل الفني،الالكي يعود اليه بفهم مضيء ورؤيات تكشف بعض ماغمض. فالاهتمام منصب اساساً على العمل الفني ومن ثم اتباع التحليل في نقد بنائه او نسيجه اللغوي،وتطوره وتكامله،دون ان نهمل نتائج الدراسات المساعدة التي اهتمت بها المناهج الاخرى،ولكن دون ان ندعها تسيطر علينا. ذلك لأن غايتنا متركزة في الكشف عن روح الشاعر الكامنة في شعره الذي هو بدوره نسيج متشعب من المشاعر والقيم الفنية والدلالات المختلفة وأزعم أنني بهذا المنهج قد يتوصل الباحث الى بعض النتائج التي يمكن أن تعتبر جديدة،سواء مايتعلق بفلسفة الشاعر في المجون والزهد والزمن أو تناوله الفني لشعره،أو ثورته على الانماط التقليدية،أو ابراز محنته في الحياة،أو في محاولة توثيق شعره الذي اعتمدت فيه على المخطوط والمطبوع من ديوانه،وقمت بمقارنته ومقابلته حتى اطمأننت الى الشعر الذي أزعم أنه يعبر عن روحه الشعرية،ومواجده،واهتماماته الذاتية.

وللوصول الى الهدف فان سلامة المنهج تقتضي السيرفي خطى ثابتة ومتتالية : ولذلك فقدكان لابدمن الحديث عن((عصر ابي نواس)) اوشخصية القرن الثاني تلك الشخصية الغنية الخصبة،التي تصارعت فيها المؤثرات،وانتاب الحياة فيها لون جديدمن السلوك والتفكير. فاضطراب السياسة ونظام الحكم المطلق،وسياسة التنكيل بالخصوم،والبؤس والشقاء اللذين،عانت منهما العامة،الىجانب صخب نهر الحياة الجارف الذي كانت مياهه خليطا من الشهوة واللذة،وكانت عرائسه من القيان والجواري والغلمان،ذلك النهر الذي شحذ في الناس جموحهم الى الشهوة والنزوات،مقابل ذلك بعض لاستقرار والثراء والحرية الفكرية المقيدة،وحياة الزهد والتقشف كل ذلك ادى الى جعل شخصية هذا القرن متسمة بالثنائية والتناقض في الفعل والسلوك وفي التفكير احيانا. وكان لهذا الواقع دور كبير في شعر الشعراء،فقد كان من العوامل التي خلقت حين أداروا في ملكه وطبعهم بطوابع مميزة. كذلك فقدكان للاتجاهات الادبية والفكرية البارزة التي ارهصت للاتجاه الشعري عند النواسي وبخاصة تيار اللهو والمجون والتمرد،او الصنعة الفنية،اونزعة التعبير عن الذات

دور في كون الحياة الادبية والفكرية لم تعرف عهدا خصبا بالرجال والافكار ومختلف الامزجة ،كما عرفت في صدر الدولة العباسية ،الى جانب تميز هذا العصر باجتماع المتضادات بل اتحادهافي النفس احيانا. فكان الزهد يعيش مع المجون ،وحرية العقل تصطدم بالاتجاه السلفي المدعم من قبل السلطة .

وفي ضوء مكونات هذا العصر يمكن ان ننظر الى شخصية الحسن بن هانئ ذلك الشاعر الذي تمرد على واقعه ،وسعى الى خلق وجوده الخاص بتحطيم ماهو سائد،وقلقلة ماهو راسب في الاذهان ،لتجديد دماء الفن وتحقيق الذات في عصر الرقابة وسيطرة الوجدان الجمعي على الفن . فالعناصر الدقيقة لمكوناته الخاصة ،والنزعة الفردية تتضحان تماما في شعره الذي برز فيه حسه المرهف وايمانه بدور العقل في معالجة القضايا الكبرى وتحقيق الصدق الفني والواقعي ،فكان الى حد كبير اكمل نموذج يمثل الحداثة في شعرنا العربي القديم .

وفي توقفنا عند المؤثرات العامة والخاصة في حياة الشاعر وشخصيته ....من اجل الوقوف على مقومات شخصية النفسية والفكرية والثقافية . تبرز العوامل التي اسهمت في نشأته وثقافته مع ربطها بتكوينه العام، فقد ولد فقيرا وعاش مرحلة الطفولة يتيما محروما من حنان الأم وعطف الأب ،فظل شعور الغربة مسيطرا عليه ،وكانت نفسه الجموح تمثل الحدة والصعود في كل شيء ،عاش عصره بجده وهزله ،وشكه ،ويقينه ،وكان مجددا ،وذا نزعة انسانية،

وفي هذا المجال لابد من التعرض للدراسات التي حاول اصحابها من خلال المنهج النفسي ، او النفسي التاريخي ان يرسموا صورة للشاعر،وهنا نجد آراء العقاد والنويهي والشافعي ،وردود النقاد الاخرين كطه حسين وناصف وغيرهما وفي هذا الصدد نقول: ان هذه الدراسات قد تفيد في مجال التعرف الشخصية ،لكنها قليلة القيمة في مجال النقد الفني ،الذي هو هدفنا.

لقد كان هذا الشاعر كغيره من الناس . سويّ الشخصية والطويّة ،تقوده نفسه الى الاهواء ويقودها هو الى مايريد ،يسرف في اللهو ويزينه للناس، ثم يثوب الى رشده فيندم على ضعف نفسه وكثرة خطاياه . وبدافع من روحه الحائرة ونفسه القلقة كان مستغرقا في اللذة ، الا انه لم يكن نرجسيا او شاذا،وانما كان انسانا مدفوعا بعوامل عدة اهمها الحزن والهم والشعور بالغبن والبؤس والحرمان،والغربة والقلق،والسأم من الحياة ومن

عبثيتها . فمن اعماق الفنان المستقرة في شعره يمكن التعرف على مقوماته النفسية ،ومن روحه الشعرية التي هيأت لشخصيته هذا القدر من النبوغ والتمرد والرؤى ندرك عمق احساسه بالوجود،ويقظة شعوره وسر مشكلته مع الحياة ،دون ان نغفل اثر العوامل الاجتماعية والسياسية والفكرية والحضارية ..... لقد كانت هذه الطبائع النفسية وليدة عقل مستنير وشعور مفكر ذي نظر عميق،وهذا ماوضحته المقومات الفكرية والثقافية التي تمثلت في كونه شاعرا متميزا عن معاصريه فهو ذو ثقافة غزيرة ،برزت اصداؤها في شعره بشكل جلي،فكان رجلا عظيم الخطر في عصره ،مولعا بالخروج لانه الذي يرسم طريقه بنفسه ،وفي شعره الكثير من الابعاد الفلسفية التي عنيت بهموم الانسان في الوجود،في صراعه مع الزمان والمكان والموت وهو ذو نزعة انسانية برزت في قلقه الوجودي الذي يبدو في ارتباطه بقوة عليا وبواقع آخر،بعد الوعي بواقعه المعيش ،ومحاولة تحقيق الوجود فيه ،واستقلال الفكر وصدوره عن حرية ايجابية تفضي الى تغيير الموقف عن طريق الوعي بالقيم ومدار هذا الوعي هو حرية الشاعر واستقلال ذاته . وتكاد هذه القضية تفسر شعره الذاتي كله تقريبا .

ولمعرفة المصادر التي كونت هذه المقومات الفكرية والثقافية ،لابد من التعرض للعوامل التي أثرت في نشأته وتكوينه مع ربطها بتكوينه العام ،وهنا نقف عند ظاهرتي المجون والزهد،ودور تيار التمرد الذي نشأ في الجاهلية في بعث التساؤل الفلسفي القلق عند النواسي وبروز مظاهره في حياته وسلوكه وشعره ،ودواعي مجاهرته باللذة ،وولعه باقتراف الذنوب ،وارتباط ذلك بالزهد المتحد مع المجون في اعماق الشاعر المؤمن العاصي ،ثم دور الاعتزال في حرية العقل ،وموقف الشاعر من الزندقة والالحاد،لقد كان ابونواس متشككاً في اغلب الاحيان ،نتيجة تساؤلاته القلقة وعبثه بالحقائق ،وحيرته حيال المشكلات الكبرى، فقد كان في اشد حالات استغراقه في اللحظة المتوهجة مرتبطا بروح عليا تجعله يعيش حالة الغربة والانفصال عن هذه اللحظة ،حيث يحن الى المطلق،الى الكمال والاكتمال والحرية الحقة : لقد كان شاعرا مجددا وداعيا الى المواءمة بين الحياة الجديدة وبين اطر التعبير عنها ،فنبذ الوقوف على الاطلال،ورفض التقليد الاعمى، ومقت التعصب ،فكان انساني النزعة ،دون ان يكون شعوبيا،ونتيجة لذلك كله تتضح لنا اهم السمات المميزة لشخصيته باعتباره فنانا وانسانا ،

لانستطيع ان نفصل الانسان عن الفنان في شعره وذلك لأن البراعة الفنية والنزعة الانسانية تجتمعان في الذات الاصيلة لخدمة الغرض الذي من اجله وجدت هذه النفس البشرية .فهوفنان يعبّرفي شعره عن عذابات النفس المحرومة التي تجاوزت حدود الزمان والمكان،لان شعره يمثل الانعتاق والتمرد ويحتضن عالما كبيرا من الرؤى والوجد والاحلام. ومن هنا كان مفتننا بشعره متفننا فيه. وكان شاعر الحب الانساني وناقدا متميزا دعاالى مذهب جديدفي الحياة والفن،ورائداً لأول ثورة على أصول الفن الشعري التقليدية ، كذلك فانه كان لايستقرعلى حال لانه دائم الترحال في دروب الحياة فهو صاحب رسالة ،ومتعبد للجمال،ورسول للحرية ،كذلك فانه كان شاعرا ينفذ الى صميم الاشياء ،وله في الزمن فلسفة خاصة تقوم على اساس ان الحرية والخطيئة امران متلازمان فالخطيئة رمز للخلاص،وفيها استغراق في عالم اللحظة الراهنة وهروب من الواقع عبر الحنين الذي يوصله الى عالم الحرية وبذلك كان شاعر الغربة والحضور والفنان الذي عاش متصلا ومنفصلا في الآن ذاته .

وانطلاقا مما سبق تقريره من قضايا،وفي ضوء فلسفته للزمن واللذة، يمكن ان ندرس اهم فنون شعره التي تتضح فيهامعالم فلسفته في الحياة، وبراعته الفنية واصالته في التعبير فعندما نكون في مجال الحديث عن ((مذهبه واتجاهاته في الخمرة))لابد من التوقف عند شعر الخمرة قبل ابي نواس ،والحديث عن صور الخمر في الجاهلية عند اهم شعرائها الذين تطرقوا لها ضمن اغراض قصائدهم ،فاهتموا بالمظاهر الخارجية للسلاف دون ان ينفذوا الى مضمونها الشعوري . ولما كان الاعشى ممثل الشعرالخمري الجاهلي فقد كانت الخمرة بالنسبة له امرا حيويا،لانه مدمن لها، اطال فيها وفصل وافتن في وصفها ووصف مجالسهاوشعاعها وطعمها واثرها وريحها . فكان واضع الخطوط العامة الكبرى لهذا الفن والرائد الاول الذي استمر تأثيره فيما بعد.وفي شعر الخمرة في العصر الاسلامي برزامر تحريمهافتحول هذا الفن من غرض شعري الى موقف يمثل قضية الصراع بين قيم الدين وبين رغبة الذات في الشعور بالحرية والتحرر من كل قيد . وكان الثقفي رائد هذا الاتجاه . امافي العصرالاموي فقد وجدت طائفتان متمايزتان،نظمت الاولى على غرار الجاهليين فظل شعرها جاهلي الروح والشكل ،وكان الاخطل ممثلهاوكانت الخمرة احد اغراض القصيدة ،وفيها تبدو اهم خصائصه الفنية . امالطائفة الاخرى فهي التي يمثلها الوليد

ابن يزيد الذي وصف الخمرمن جوانبها المتعددة ،وبرز اثر الوجدان قويا في شعره ، وانماز بصدق اللهجة والجري مع الطبع ،ومحاولة هدم كل مايعترض طريق حياته من شرائع وحدود واخلاق فعبر عن كونه فنانا فاقد الرجاء من جدوى الحياة ،مستخفا بها وقد كانت العلاقة الروحية بينه وبين ابي نواس قوية في شعر الاخير بصورة واضحة .

وبعد الحديث عن المراحل التي مربها شعر الخمرة وتطوره حتى اوائل القرن الثاني يمكن ان نتحدث بتفصيل عن رؤية ابي نواس للخمرة وفلسفتة ومذهبه فيها ،وفي هذا المجال اقول: كان ابونواس شاعر الخمريات الاول في موروثنا الشعري ،ذلك لان خمرته خمرة فلسفية حملها همومه وشكواه وقلقه واحزانه . فهي التي تقيه الهموم وتخدره الى حين ومن هنا كانت له رؤية او فلسفة خاصة فيها . فهي في نظره انعتاق وتعبير عن الحرية ،وهي العالم الآخر غير المرئي ،لانه بشربها يزيل الحدود القائمة بين وعيه وبين حقيقة الاشياء فتبدو سافرة عارية . تغني بها على الرغم من ايمانه بتحريمها وكانت مع الحب الدافعين القويين اللذين يوحيان الى عبقريته بأبرع شكل وأمعه . فهو بهما يكشف السر عن جثة الزمن ،ويؤكد ثورته على وجوده القاسي،وهي صورة للحنان ورمز للأمومة الكبرى ،توحد معها فكانت شقيقة روحه ،وتعبد في محرابها فأحس نحوها بشعور القداسة لانها موحدة للمتناقضات ،وفيها يكمن سر حياته . كذلك فانه كان يقرن الادمان بالمجاهرة ويسخف العاذلين ،لانه مؤمن انه بالخطيئة يحقق ذاته ،ويعيش اجواء الحرية المسلوبة . ففي سكره فرار من حقائق الحياة وهروب من آلام القلق ،وهو يريد ان يؤكد ان خمرته هي العين السحرية التي يرى الكون من خلالها ،وبناء على ذلك كله فقد كانت اقرب الاسباب الى اثارة حقيقة الانسان فيه ، ونتيجة لذلك برزت في خمرياته عواطفه المتدفقة ،ومشاعره المتقصية وعبر عن كونه واعيا بدقة للتراث ،ومضيفا اليه اضافات الاذكياء المبدعين .

وبالمقارنة العجلى .... بين رؤية كل من النواسي والخيام للخمرة ،نجد ان الاساس الفلسفي عندهما كان مختلفا وانهما قد اتفقا في بعض الرؤى الخاصة ،وان اثر النواسي في الخيام واضح الى حد كبير، لكن الخيام كان اقوى تفكيرا وابعد غورا واشد قتامة وشعورا بعبثيه الحياة من ابي نواس الى جانب اختلاف نظرة كل منهما الى مابعد الحياة . فقد عبر

الخيام عن كونه ثائرا فاشلا متشائما غيرمطمئن الى مصيره ،بينما كان النواسي بعيدا عن الالحادالفلسفي القاتم ،لانه مؤمن انه سيلقى ربا غفورا يعفو عنه .

وان شعرابي نواس لاينفك متحدا باهتماماته الخاصة ،وانطلاقا من هذه القضية يمكن للدارس ان ينظر الى اهم جوانب فلسفته في الخمرة ،كي ينطلق الى تعرف طبيعة معالجته لشعر الخمرة من زاوية الابداع الفني والصنعة الشعرية ،عن طريق الدراسة النقدية القائمة على التحليل والمقارنة والموازنة ،ومحاولة سبر الاعماق وقراءة ماخلف السطور ،كي تبرز بوضوح اهم الخصائص الفنية والقيم الجمالية في خمرياته ،بدراسة اوصافه واساليبه في قضايا وصف مجالس الخمرة والحانات والاديرة وآداب المنادمة ،ثم مناحي الجدة والتقليد فيما يتعلق باوصاف الخمرة واشيائها مع ذكر الجديد الذي اضافه الى هذا الفن حيث كان يمثل اليقظة بمعانيها كلها .فقد صورفي خمرياته مجالسه المونقة ،ومزج وصف الخمربوصف الطبيعة وتغنى بالجمال ومال الى التجريد والتشخيص واللامرئيات ،واكدسيطرة الروح على العالم في وصفه لنشوة الخمرة المرتبطة عنده بنشوة الفن ،فعبرعن كونه مثالا للحضور البالغ التوهج ،الذاهب الى روعة الغبطة بالالتصاق بالاشياء . وفي حديثه عن الحانات والاديرة خلد ذكرياته ،وعبر عن حنينه الى هذه المنارات في عالم النشوة ،وعاش الاجواء الطهرية في الاديرة ،وبعث في الذهن اطيافافنية عبرت عن اعجابه بما في الدير من جمال روحي وبشري فاضاف الى الشعر ادب الاديرة بما فيه من اوصاف ومعان وحد فيها بين الحب والحرية والجمال والشعور الانساني ،وفي ادب المنادمة وضع دستورا للشراب ،حيث جعل الخمرة معقد الصلة بين الناس،والنديم جزءا لايتجزأ من عالمه . ومن هنا جاءت آدابها استكمالا لوجوده الخاص الذي عاش فيه ملتصقا ومنفصلا .

اما فيما يتعلق باوصاف الخمرة واساليبه فيها ،وبالدراسة التحليلية تبرز خصائصه الفنية والقيم التعبيرية في تناوله لقضايامباكرة الخمرة ، ووصف شعاعها ،وريحهاولونها وقدمها واوعيتها ،واثرها في الشاربين وهديرهافي الدنان ،وطعمها ،ومافي ذلك من اوصاف حسية ومعنوية وصور ذهنية ذاهلة .لقد سار في بعض هذه الاوصاف على هدى من اوصاف سابقيه وابدع في بعضهاصورا جديدة موحية ومعبرة وفي الوقوف على كل جزئية

على حدة نتبين طبيعة العلاقة بين اطراف الصورة الشعرية ومدلولها الوجداني،وما تتضمنه من رؤى فلسفية خاصة ،عبرت عن ثقافته الواسعة وخياله الخلاق . ذلك لانه الم بالخمرة ومتعلقاتها المام الخبير والمتأمل المستغرق ،والمعجب العاشق ،فتعددت معانيه في الوصف الواحد،وكان مبدعا ومستوحيا من التراث ،وابرز قدرته الفنية على استخدام التشخيص والتجريد ووصف المشهد المتحرك باضفاء عنصر الحياة والحركة على المعاني الجامدة منطلقا في ذلك من شعوره الحار تجاه الخمرة التي كانت كل قصيدة او مقطعة تمثل تجربة شعرية تحققت فيها الوحدة العضوية هذا الى جانب استخدامه اسلوب القصص الخمرى الذي كان وسيلة فنية لنقل المعنى واختزان الفكرة والشعور وتوسيع مجال القول ،ولم تخل خمرياته من بعض الصور التي تعتبر جديدة قياسا على اشعار سابقية ،وفيها وضح الخطوط الجديدة التي رسمها لصورة الخمرة ،فكانت اما وحبيبة ،واداة هدى وصباحا مشرقا ،كذلك فقد انتقل حبه منها الى متعلقاتها . وبذلك كله استطاع ان يصل بفن الخمرية الى مرحلة النضج والابتكار ،وبذلك ارسى دعائم مدرسة فنية ذات ابعاد وجودية وانسانية شاملة لأن الصهباء عنده وسيلة لتفجير الصراع مع الوجود ،وشحذ طاقات الابداع الفني ومناحي التجديد والتمرد . لأنها تطهر وتحرر .

وعندما نحاول الحديث عن فن الغزل عنده ،وبعد ان نبرز خصائص اتجاهات الغزل الثلاثة : الحسي والعفيف والتقليدي ونربط بين طبيعة الحياة العباسية وبين حياة الشعر الذي كان يعبرعن بعض جوانبها ،ثم نوجز اهم مظاهر التطور الذي طرأ على الغزل في القرن الثاني يكون ذلك تمهيدا للحديث عن تغزل ابي نواس بالمؤنث . ذلك الغزل الذي كان الوانا متداخلة منه الذي يرق في عواطفه ويدق في معانيه ،وقد كان وصف حبه لجنان ضمن هذا المنحى العفيف ،ولون آخر تبدو فيه السخرية والعبث والفحش احيانا ،وهو الذي تغزل فيه بالجواري والقيان والغلاميات ،واللون الاخير هو الذي يمثل وعيه بما حدث من تغير في المقاييس العاطفية والاخلاقية في البيئة العربية ،وهو متداخل في النوعين السابقين وبارز في مقدمة اماديحه ،وفي الدراسة التحليلية نقف على اكثر صورة التي بدت منها معانبية شفافة وبسيطة ،او مبالغا فيها ،ملحاعلى الحب وبصورة خاصة في اشعاره بجنان تلك التي عبر فيها عن حبه القوي الفاشل . اما تعشقه للجواري الاخريات

فقد افتقر الى الحرارة والصدق لافتقاره الى من يبعثهما في نفسه ولهذا بدا متذبذبا في عواطفه ،الى جانب وجودعلاقة وثيقة بين طبيعة هذه العاطفة وبين طبيعة المعاني والصور التي حفل بها غزله بالمؤنث اضف الى ذلك بساطة اللغة وتجسيد الكثير من اللفتات الذهنية والفلذات الشعرية ، وارتباط اللغة بالحب .

اما غزله بالمذكر فهو فن مرتبط برؤية الشاعر للحياة وموقفه من المجتمع ،وخروجه على تقاليده واعرافه . وبعد الحديث عن نشأته واسبابه ،ودوافع الشاعر اليه ، نؤكد ان الفن والاحساس بالجمال كان دافعه الاول ،ولم يكن يغادر الصدق الفني فيه ولم يكن منغمسا في الفاحشة وان هناك اسبابا مستقاة من شعره تبين غاياته واهدافه من هذا الفن الذي اكثر من القول فيه . فهو يريد ان يبدع في المعاني والاوصاف ،ويتمتع بشتى الوان الجمال،وفي اساليبه الفنية في هذا اللون الادبي بدا واضحا انه مهتم بالاستعارة ليفسح المجال للتعبير عن قدرته على التعامل مع المجاز ،ليبرز جديده بازاء المعاني القديمة ومن هنا اقترب فيه من فن الخمريات من حيث الجدة والانطلاق الى آفاق معنوية بعيدة .. وفي التقويم العام لغزله تبين لنا ان النواسي لايصف الجسد الالكونه ذاروح،وقد تفاوتت اساليبه الفنية بحسب نظرته للمتغزل بهن ،وكثرت عنده المبالغات ليدلل على مدى تمتعه بالجمال والحرية او السخرية . وهذا الفن بعامة يلي الخمريات من حيث طبيعته الوجدانية وطريقة التناول الفني .

وعندما ينظر الناقد الى زهده ومديحه ،لايستطيع ان يفصل بينهما وبين الخمرة والغزل ، ذلك لأن ايا من هذه الفنون لايخرج عن اطار ملكوته الشعري . اما في مجال الحديث عن شعر الزهد من حيث نشأته والعوامل والاسباب التي ادت الى انتشاره وتطوره في القرن الثاني وكذلك طبيعة زهد ابي العتاهية الذي يعتبر ممثل الشعر الوعظي ،يمكن ان نفصل القول في زهد ابي نواس ونبين اسبابه وفلسفته فيه وارتباطه بمجونه ونبرهن على ان زهده سبحات روحية ولقاء بين الذات العاصية وبين الحقيقة الازلية الساطعة ،وان التوبة انتصار لجانب الايمان على ملابسه المجون فزهده امر طبيعي،ذلك لانه من اعماق الشهوة تتفجر ينابيع الطهر والايمان،في بعض الاحيان ،ومن خضم الحياة يستقي الانسان تجاربة ويقف بنفسه على الحقيقة بعد صراع مريرمع الشك والقلق والمعصية . فقد آمن

الحكمي وظل ايمانه بين افقد طول حياته التي ختمها بالزهد وطلب المغفرة والتوبة . ومن هنا كانت العلاقة بين زهده ومجونه قوية ،بل عضوية ،فعندما كان مجونه يحرره من آلام الحياة ،كان زهده تحريرا له من اسباب المعاصي والذنوب والتشكك ،الى جانب الجودة الفنية في كلا الفنين والواقع النفسي القلق المسيطر عليهما . فزهده ومجونه موقفان حياتيان ،وهما صدى لحالات من النظر العقلي والابعاد الوجودية والاعتقاد القبلي عاشا معا في نفس واحدة ،فكانا كحبتي قمح في سنبلة واحدة . فهما طرفا محور في دائرة واحدة هي ذات الشاعر ،يؤكد هذا الارتباط ،رهافة حسه ، وشفافية قلبه ،وسيطرة الروح على العالم وحنينه الى المطلق ،ووجده المتصل بالتوبة وطلب المغفرة ،وبالمقارنة بين زهد العتاهي والنواسي نؤكد ان الاول كان زاهدا فنيا ،مهتما بالجانب الوعظي التعليمي ،بينما كان زهد النواسي منبثقا من ذاته ،وهو نتيجة لصراع طويل وفيه تكفير عن الذنوب يرفد ذلك تفوق في الشاعرية واخلاص وصدق في كل مالهج به من معان شعرية ، لانه نموذج لقوة الروح وحياة الوجدان في مسارب الضلال والخطايا .

وفي الحديث عن مديح ابي نواس تبدو لنا اساليبه وصوره فيه ،لقد كانت السمة العامة هنا انه مترجح فيه بين التقليد والتجديد وان احدهما ينمو في الآخر يغذيه ويتغذى منه ،ونظرا للطبيعة التقليدية لهذا الفن فقد كان الشاعر حريصا على الاصالة وابراز قدراته الفنية ،وقد فرضت طبيعة هذا الفن الوقوف على قضية البناء الفني للقصيدة ،ثم ارتباط ذلك بالمعاني والاوصاف ،وقد تبين لي انه سار في بعض مدحه ضمن خطوط التقاليد الشعرية القديمة وان هناك قصائد كانت بين المحافظة والتجديد ،واخرى جديدة وان الفيصل في قضية التجديد والمحافظة هو عاطفة الشاعر تجاه ممدوحه ، اي ان هناك صلة قوية بين الباعث على الفن وبين الصدق الفني . وفي مجال الحديث عن اساليبه وطبيعة معانيه المدحية وصوره وجدت انه في الاوصاف الحسية كان اقرب الى القديم ،وفي المعنوية التي كثرت عنده ،تميز بقدرته على خلق اللغة التي اقام بين مكونات نسيجها علاقات متفاعلة ،الى جانب الربط الحي بين طبيعة الصورة والبناء الفني والممدوح ولذلك كان الشاعر مجددا في بعض اوصافه الى جانب استقلال ذاته . وثرائه اللغوي .

ودراسة كهذه لابد من ان تشتمل على الحديث عن الاصالة والابداع الفني في شعر النواسي . فهو الشاعر الذي حرص على ذاته وعلى وجوده

مستقلين عن الجماعة، وقد بدا ذلك واضحا في ثورته على النموذج الشعري العام. واذا ما اردنا ان نحدد معنى الاصالة فاننا نذهب الى انها خلق للفن من تراث سابق، دون ان يكون هناك فرق كبير بينها وبين الابداع الفني. ومن هنا فلا بد من الحديث عن العوامل العامة التي كانت تقف خلف هذه الثورة التي تمثل التخطي والتمرد. لقد رفض السيرفي خطوط مستقيمة، لأنه يمثل اليقظة، وفي شعره يوائم بين الفن والحياة، وتجاربه محصورة في اطار ذاته التي ابت ان تذوب في مجرى المؤثرات الخارجية ذلك لأن الحداثة تعني استقلال الذات عن كل ما يجعلها ترسف في انحلال العرف والتقاليد.

وانطلاقا من هذا الفهم يمكن ان ننظر الى مظاهر هذه الثورة التي برزت في رفضه لنهج القصيدة العربية القديمة في شعره الوجداني بصورة خاصة. الى جانب سخريته من التقليد الاعمى والدعوة بحماس وعنف احيانا الى نبذ الاطلال على الرغم من انه سار احيانا في خطوط تقليدية ـ كما هو واقع الحال في مدحه وهجائه وطردياته ورثائه.

لقد سبق النواسي بارهاصات ادت الى ثورته هذه. اما دوافعه الى الثورة فقد تمثلت اساسا في رغبته في اعادة تشكيل صورة عالمه الشعري بدأ من تجربته الذاتية، الى جانب توفر ارادة التغيير وضرورة اكتشاف انماط جديدة للتعبير عن انماط حياتيه واقعية ومتخيلة. وبذلك كانت ثورته داخلية، حقق من خلالها الاصالة في التجربة الشعرية النابعة من معاناته ومواجده الذاتية.

كذلك فان الاصالة والابداع الفني قد برز في استعماله للغة واستغلاله لطاقاتها الابداعية. فقد كان ابونواس يغلب حريته الخاصة على القانون المطلق الصارم للغة، لكي يخلق عالمه اللغوي الخاص باقامة علاقات جديدة متفاعلة، داخل السياق الشعري، ومن هنا كانت العلاقة بين اللغة والتجربة الشعرية قوية. فالتلقائية والعفوية، وتدفق التعبير وارتباط اللغة بطبيعة التجارب الشعرية المختلفة، والصدق الفني، من اهم ما يوضح طبيعة هذه العلاقة. كذلك فقد كان للنغم او لموسيقى الشعر دور كبير في شعره. فقد كان الايقاع الداخلي والخارجي يمثل روحه ونبض عروقه وايقاعه النفسي، وخير معبر عن التجربة الداخلية. وفي هذا الصدد اقول: انه من خلال التحليل والاحصاء لم اجد ثمة علاقة بين الوزن والمعنى، وانما هناك علاقة بين التجربة والموسيقى الداخلية. فالوزن والتجربة يولدان في اللحظة ذاتها. وللقافية دور في التجربة لأنها مصب الدفقة الشعورية.

هذا وقد كانت عند النواسي بعض المحاولات المحدودة للتجديد في موسيقى الشعر،لكن هذه المحاولات لم تخرج عن اطار تطويع النغم للانفعالات الداخلية الى جانب تعدد البحور الشعرية ،واحيناء بعض الاوزان المهملة ،والاكثار من الزحافات والعلل ،نتيجة لتململه من الرتابة دون ان يحاول تحطيم البنية العروضية للشعر. كذلك فقد كان ثمة علاقة بين اللغة والصورة. فهو فنان يرسم بالكلمات فتأتي الصورة وليدة خيال شعري وعاطفة سائدة في اغلب شعره الذي هو عبارة عن تجارب تميزت في اكثرها ،بالوحدة العضوية. فهو بالصورة يكتشف الاشياء ويؤولها ،ولذلك كانت الصورة وعاء التجربة الشعرية وعضوية في البناء الفني .